

دراسة تحليلية لقصيدة " يا الله سلطنا في ليلة الهجوم " للشاعر لخضر بن خلوف

د/ لخضر حشلافي
جامعة الجلفة/ الجزائر

سنحاول في هذا البحث تحليل قصيدة للشاعر سيدي الأخضر بن خلوف، هي إحدى القصائد التي جمعناها للشاعر، وتعتبر من القصائد التاريخية المسجلة لأحداث عصر الشاعر، وهي معنونة بـ"يا الله سلطنا في ليلة الهجوم"*.: وسيكشف لنا هذا التحليل عن أهم القيم الجمالية والفنية التي يتميز بها الخطاب الشعري للشاعر بن خلوف، وكان اختيارنا لهذه القصائد مقصودا ومتعمدا، لكونها تحمل جملة من الخصائص والمميزات والقيم الأدبية والثقافية، ومثل هذه القصائد جديرة بالدراسة والتحليل.

أ- محتوى القصيدة:

يستهل الشاعر القصيدة بمقدمة استهلالية يتحسر فيها على ما مضى من دنياه التي حسبها دارا باقية دائمة، لكن هيهات أن تدوم فالموت يرجاه، والقبر مثواه، والسفر الطويل قريب، وبعدها يستعرض الشاعر مهمته التي خولت له بأن يجمع القبائل ويوحدها تحت راية الجهاد ضد العدوان الإسباني الغازي، وكان هذا في حكم حسن بن خير الدين بربروس، ولقد كان الشاعر بسيفه ينادي في كل قوم ويعطي صوته أن لا نرضى بذل الهوان، ولا بشماتة الأعداء، ولا الدوس على الكرامة والشرف، ولقد كان منطلق الشاعر من مقام الولي الصالح سيدي عبد الرحمان الثعالبي، أي من الجزائر العاصمة، ثم قدمه إلى جبل شرشال، وتنضم القبائل والأقوام معلنة الجهاد منذ الوهلة الأولى مزودين بالزاد والعتاد والذخيرة والسلاح ما يكفي لقتال طويل المدى، ولقد سجل لنا الشاعر الآلاف من المجاهدين الذين جمعهم تحت راية واحدة، وقصدوا مدينة البليدة، فمدينة الأصناب (الشلف حاليا)، فزاد العدد والعتاد، حيث بلغ العدد عشرون ألف مجاهد من مختلف طبقات الشعب، وتوجهوا إلى مدينة المرجة (مرجة سيدي عابد)، والتي يتواجد بها ضريح الولي سيدي بوعبد الله، وفي طريقهم إلى مكان المعركة يأتيهم الخبر عاجلا من هبرة (منطقة في ولاية معسكر) أن عجلوا في المسير، لأن العدو يوشك على الهجوم، ويسرع الشاعر بجيشه الذي جمعه طيلة المنات من الأميال، والكل عزم وحزم على الجهاد والدفاع عن شرف هذا الوطن، ويصل الجيش المجاهد إلى عين المكان، وتعلن الحرب، وترفع راية (الله أكبر) تدوي في كل مضرب من

* انظر القصيدة كاملة في ملحق المقال.

مضارب المعركة، ويثبت جيش الإسلام على كلمة واحدة (لا إله إلا الله)، وينكبد جيش الإسبان هزيمة لا تمحى من سجل التاريخ، وتدخّل معركة مزغران التاريخ من بابه الواسع، ويؤنّت في سجل الخلود بأحرف من ذهب، مثلها مثل غزوتي بدر وحنين التي خلدتهما القرآن الكريم في آياته، لأن النصر كان حليف المؤمنين، وكانت الهزيمة لجيش المشركين، وإن النصر كان من الله تعالى كون أن المؤمنين كانوا أقل عدداً وعدة، هذا ما زادهم قوة وإيماناً ويقيناً وعزيمة وثباتاً وصبراً، ومهما بلغت قوة العدو، ومهما ازدادت عدة الكفار، فإن قوة الإيمان والثبات والعزم لا ولن تقهر أبداً.

وأخيراً يعترف الشاعر بصور التضامن والتعاون والإتحاد والأخوة التي سادت أبناء هذا الوطن والقيم كانت من أولى أسباب النصر و الإنتصار في ساحة الوغى ضد جحافل الإسبان الغازية، ويختم الشاعر القصيدة بدعاء وتضرع إلى الله تعالى بأن يظهر قلبه من الخطايا والآثام، وأن يرحمه وأمه في جنان الخلد التي وعدّها الله المتقين الأصفياء والأخيار، ثم يصلي ويسلم على الرسول صلى الله عليه وسلم بقدر أهلة كل الأعياد، وضيء كواكب السماوات، ولقاح كل الزهور، ونور جميع ما ظهر من النجوم.

ب- لغة القصيدة:

تعتبر اللغة الاهتمام الأول والشغل الشاغل للنقاد في النقد الأدبي، واعتبرها الدارسون جوهر الخطاب الشعري تتميز عن لغة الاستعمال اليومي، حيث إن الشاعر لا يتحدث كما يتحدث جميع الناس، بل إنها الأمر الأولي الذي يتبنى عليه التحليل، ولقد توصل النقاد إلى بعض القواعد النظرية، تتم عن كفاءة في النقد، وتبصر في التحليل في فهم ودراسة لغة الخطاب الشعري، وهذه القواعد تتراجع أحياناً وتتقدم، وتتقارب وتتباعدها، وتتنبق أخرى وتتجدد، كل هذا يحدث نتيجة الأدوات المستعملة، والوسائل المنتهجة، والمناهج المعتمدة، وتبقى اللغة هي التجسيد الحقيقي لكل انطلاق ينطلق منه، أصحاب كل اتجاه، حيث راح كل اتجاه يستنطق كل شكل من أشكال اللغة، من حيث الألفاظ والتراكيب والأسلوب، والصور، والإيقاع، ومستويات نحوية وصرفية وصوتية وتركيبية ودلالية، وكل ماله علاقة باللغة والبلاغة والجمال، عندئذ ظهرت مجموعة من المصطلحات النقدية والمفاهيم التي أنتجها النقد اللساني على المستوى اللغوي منها تعدد المعاني Polysemie، والاستبدال Substitution، والاستعارة Metaphore، والمجاز المرسل Metonymie، والتكافؤ Equivalence، والتماثل Similarité، والتباين Aissimilarite، والترادف Synonymie، والتضاد Antonymie، ومفاهيم نقدية أخرى مثل التناسل Intertextualité، والنص المتعدد Letextepluriel، والتضمين أو توزع المعنى Déssimination، والإبلاغ L'enonciation، وتعددية الصوت Polyphonie وغيرها.

فاللغة هي عماد الدراسة النقدية، وعلى الناقد "البحث عن المعنى وليس تغييرها لكل معنى، ولا شك أن القراءة النقدية إبداع يبتدئ باللذة التي تحصل عند أول اتصال واختراق لنسيجه المعقد، وكشف بعض أسرارها، وتمثل لفضائه اللامحدود، وتصور لأفاقه الممكنة، وتتبع لذة الكاتب من تحويل السكون في بياض الورقة إلى حركة امتلاء"¹.

و النص الشعري بحاجة إلى فك رموزه، بالتساؤل عن سبب الفعل، ومسببه، ومن فعل، وماذا فعل، وأين ومتى وكيف ولماذا؟، ليتوصل الناقد إلى فك الرسالة، لتصبح لغة الخطاب الشعري "تلك اللغة العليا الجزلة المفارقة للغة الشائعة المألوفة، على مستوى المفردات أو على مستوى الأنساق اللغوية وقد تركت هذه الدلالة لدى القراء إحساسا بأن الشعر مقترن بالإغراب، وأنه يتشكل من لغة خاصة تبين ما يألون، وتتعد عما يعيشون من صور الحياة اليومية ولغتها، وقد تجذرت هذه الدلالة في وعي القارئ بفعل استمرارية الحضور الطاعني للشعر العربي إلى حد أصبح معه لفظ شعر يستدعي إلى ذهن القارئ أو السامع موضوعات ذلك الشعر ولغته وموسيقاه"².

إن الفكرة الأساسية التي ينطلق منها النقد في الشعر بصفة عامة هي أن اللغة بنية، أي كيان واحد متكامل، وبمعنى آخر: نظام Système بتعبير سوسير، حين يرتبط النظام بعلاقات مرتبطة ببعضها البعض، فاللغة هي مجموعة من العلاقات القائمة بين عناصر النظام "فكل وحدة أدبية من الجملة المفردة حتى الترتيب الكامل للكلمات يمكن أن تظهر في علاقة مع مفهوم النظام، (...) ونرى الأدب أيضا نظاما في داخل النظام الأضخم للثقافة الإنسانية، والعلاقات التي تحصل بين أي من هذه الوحدات النظامية يمكن أن تدرس"³.

ويبقى هدف الناقد هو الكشف عن "المرئي و اللامرئي في الأدب، فالأدب نص مكتوب هذا النص فيه ما يظهر على السطح، وفيه ما يبقى في الأعماق، (...)، ذلك لأن الأدب فن يستعمل اللغة في طريقة جمالية مستخدما العاطفة والتجربة والرغبة في صياغة عالم جديد ينطلق من واقع الإنسان"⁴، ومن مهمة النقد الأدبي "كشف هذا العالم (يعني الأدب)، وتفكيكه وتحليله وإعادة بنائه

- الكيلاني مصطفى: وجود النص الأدبي/ نص الوجود، مجلة الفكر العربي المعاصر، جويلية 1988 ص 28.

- الزغبي زياد: تبسيط الخطاب الشعري، مجلة أبحاث اليرموك، الأردن، ص 09.

- شرلزروبرت: البنيوية في الأدب، ترجمة حنا عبود، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط7، 1977، ص 20 وما بعدها.

- الوعرمازن: اللساني/الأدبي، مجلة الفكر العربي المعاصر، ص 63.

باستمرار، بحيث يمكن للناقد أن يسهم في عملية إعادة البناء ليكون عمله أشبه بخلق عالم لاحق (علم نقدي)، لعالم سابق (نص أدبي)¹.

فتحليل النص هو بلوغ جوهره، بتحليل عناصره المكونة لجمالياته الفنية، ويبقى عنصر اللغة من أولى الإشكالات التي ينبغي على الباحث فك رموزها، ومعرفة خباياها، لأن النص أشبه بالعبوة الجاهزة للتفجير، وعلى الباحث معرفة كيفية تفجيره للتظاير شطابيا المعاني والدلالات والتأويلات، ولا يتأتى هذا إلا بامتلاك الباحث مفاتيح التحليل، والغوص في عمق النص، وتوظيف كل القدرات الفكرية والمعرفية والأدبية ليكون النص أداة طيعة لمعرفة العلاقة بين المعنى وما يؤديه المعنى.

وبما أن القصيدة الشعبية هي الأخرى خطاب محمل بمجموعة من الخصوصيات الصرفية والصوتية واللغوية والدلالية، فمن مهمتنا أن نستكشف أهم هذه الخصوصيات التي تخفيها قصيدة سيدي الأخضر بن خلوف المعنونة بـ (يا الله سلطنا في ليلة الهجوم)*.

تعتبر قصيدة (يا الله سلطنا في ليلة الهجوم) أشبه بالكائن الحي الذي يتحرك، والحركة دلالة على النبض والحياة والوجود، وهي قصيدة من أقدم ما وصلنا من الشعر الشعبي الجزائري المسجل للثورات المتعاقبة على أرض الجزائر، فهي بمثابة شريط سمعي بصري يصور لنا الحقيقة بتفاصيلها وحقائقها المدسوسة، وتعطينا أحداثا تاريخية لازال بعضها يثير كثيرا من الملابس التي تقبل الشك وتتعارض مع الحقائق المؤرخة في صفحات الكتب التاريخية، وإن دراسة وتحليل مثل هذه القصائد يلقي الضوء على القضايا المبهمة والغامضة التي أهملها المؤرخون وغمرها النسيان في جوفه، لسبب من الأسباب.

فمن خلال القراءة الأولى للقصيدة، يتبين أن القصيدة تتميز بالحركية في أحداثها، وغلب عليها التحول في مسيرة الأفعال كما يقول عبد القادر فيدوح: "الجملة الاسمية - في رأي النحو العربي- تفيد الاستمرار والثبوت، أما الجملة الفعلية فتفيد التحول والحركة"² ولهذا جاءت القصيدة محملة بكثافة الجملة الفعلية، وحضور نسبي للجملة الاسمية.

يؤكد الشاعر في أول القصيدة على وحدة المجاهدين الجزائريين والجيش العثماني المسلم، وحدهم دين الإسلام، والغيرة على الوطن، وراية الجهاد في سبيل الله حيث يقول:

بأشا خيال كنت نهاتي من العرب *
في حكم خير الدين العادل الأصيل *
**

1- المرجع نفسه، ص 63.

* انظر القصيدة كاملة في ملحق هذا المقال

2- فيدوح عبد القادر: دلالية النص الأدبي، ص 46.

فالشاعر هنا يفتخر ويعتز بعروبته وانتسابه للعرب، ودعاه الواجب أن يكون قائداً في مهمة عسيرة كلفه بها الأمير حسن بن خير الدين، وهي جمع القبائل وتوحيدها تحت راية واحدة هي راية الذود والجهاد عن الوطن ضد الإنسان الغزاة، ووصف حكم خير الدين بالأصالة والعدالة رغم أنه لم يكن من أبناء هذا الوطن، وتشاء الأقدار أن تلتقي نفطة الإسلام بين الشاعر وحسن بن خير الدين، وهذا دليل على أن دين الإسلام يجمع ولا يفرق، يجمع بين كل الألوان والألسنة مهما كانت.

ولأن الشاعر كان فارساً قائداً (باشا خيال)، فواجب على الجميع احترامه وطاعته، والإقتداء بأوامره ونواهيته، حتى صار مثلاً وقُدوة حتى عند الأتراك حيث يقول:

إذا نعبر بسيفي من شافني رهب * والترك تهاتي بيا في كل جيل *
* * *

فالحقل المفهومي للفظة (السيف) دليل على البسالة والشجاعة والبطولة، والمهارة والخبرة في شؤون الحرب، والمقدرة على القتال، كما تدل على الشهامة والحرية والجهاد والشهامة، والسيف لا يمكن أن يحمله حبان أو ذليل حقير، وبمعنى أدق هو الوطن والحق ودم الفداء وثمر النصر، وهو الجنة التي بشر الله بها المجاهدين في قوله: "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم ألاً خوف عليهم ولا هم يحزنون"¹.

إن مهمة الشاعر بن خلوف ليس سهلة، بل هي من أصعب المهام في الحياة العسكرية، وما زاد صعوبتها وتعقيدها هو النزعات الجهوية والقبلية والعشائرية بين مختلف القبائل الجزائرية إلى حد العداوة، وإنه من العسير جداً أن يقنع الشاعر كل الأطراف ومصالحتها، وإطفاء نار الحقد والعدوانية فيما بينهم، ولقد عبر الشاعر عن هذا بقوله: (شاب راسي) وقوله (والخلوفي ينده ويسايس):

شاب راسي من قوة ليعة * مسرطين الفرسان ما شيه و جايه
* * * المحال

و الخلوفي ينده و يسايس في * و العرب بالسنجاج والقوم غازية
* * * الأبطال

إن العامة الجزائرية عندما يشتد بأحدهم الهموم والمآسي يفصح هذا الأخير عن عظمة ما يحمله بقوله: (شاب راسي من هذي الهموم)، وإن عظمة المهمة على الشاعر، جعلته يفصح عن صعوبة تأديتها بقوله (شاب راسي)، ولا يزال المخيال الشعبي الجزائري يربط شيب الشعر بكثرة الهموم. ولقد كان الشاعر ذكياً فطنا حريصاً على إقناع ومصالحة كل القبائل، لأن اليد الواحدة لا تصفق، وإن الأمر يستدعي تكاتف كل الجهود، وحرص كل

¹ - القرآن الكريم: سورة آل عمران الآيتين: 169-170.

الصفوف، وإتحاد كل الأيادي، وإن القضية هي قضية وطن، والوطن هو كل شيء، هو العلم والمعرفة، هو الحرية والحياة، هو الشرف والكرامة، هو الإسلام والعروبة... وسبب اجتماع الجميع هو كفاءة الشاعر، وتحمله المشاق بمعرفته، وعلمه وورعه ومنزلته كقائد، يأمر وينهي، ولا بد من أبطال القبائل إلا السمع والطاعة، يقول الشاعر:

**والأبطال من الأتراك عندي مجردة *
من توفى مسلم يوا بد النعم * ***

فالجهد مصير، إما نصر أو شهادة في سبيل أن يحيا الوطن، والشهادة تقود حتما إلى الجنة، ولا جزاء للشهيد غال وأثن من ضمان الجنة دار النعيم، وهكذا استطاع الشاعر التأثير في النفوس، والضغط عليهم بسياسة حكيمة هي أن الوطن يستدعي إشراك كل القبائل للجهد ضد الغزاة الإسبان الذي طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد.

ومن منطقة إلى أخرى، يستجاب لنداء الجهاد، وتنضم القبائل، ويتبع الشاعر خلق كثير من أنصار الجهاد، انطلاقا من الجزائر العاصمة فشرشال فالبليدة ثم حوض الشلف ثم إلى الأصباب ومرجة سيدي عابد، فكمامدة فهبرة وأخيرا إلى عين المكان، إلى ساحة الوغى، وينبهر جيش الغزاة حيث يرى جحافل وجيوش المسلمين الكثيرة العدد والعتاد، فيتملكهم الرعب والخوف والجنين إلى حد الهروب من القتال، ويصور الشاعر هذه الحقيقة عن وضعية الجيش الغازي وما حل به يوم الواقعة بقوله:

**كي فرعنا صبنا سبنيولمصيلين *
في وسطنا درناهم للسيف والطراد * ***

**عند سيدي منصور ضحاو *
فمة ضربناهم بالقوس وا لزناد * ***
هاربين

وفي المعركة يتكبد زعماء الغزاة هزيمة نكراء، لم ينهزموا بعدها ولا قبلها مثل هذه الهزيمة التي أطاحت بسمعتهم وهيبتهم "ولم تكن هزيمة الإسبان في واقعة مزهران هزيمة جيش غاز أراد أن يفرض سيطرته وسيادته على الجزائر فحسب، وإنما كانت هزيمة حملات صليبية متوالية موجهة ضد الإسلام والمسلمين وقد أسهمت فيها الكنيسة بوجه من وجوه الإسهام، وغذتها بعوامل من الحقد والكراهية ضد الإسلام... فهل يمثل عمل هؤلاء ما عرف به المسيح من الدعوة إلى المحبة والتسامح والوئام إلى درجة قوله: "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر"¹.

ولقد كانت معنويات الجيش الجزائري جد مرتفعة منذ الوهلة الأولى عندما دعاهم نداء الواجب، وانضمامهم إلى جيش الجهاد في سبيل الله، يدفعهم الحماس،

¹ - التلي بن الشيخ: دراسات في الأدب الشعبي، ص 81.

والشوق إلى لقاء الكفار، والغيرة على الوطن الذي تعرض إلى الظلم والهوان، وقد عبر الشاعر بن خلوف عن قتال الجزائريين بصورة بالغة التأثير في حماس يثير الإعجاب والإكبار حيث يقول:

كل واحد على العديا يرتمي * كالنمر الجيعان بهمته يصول

وإن لفظة (النمر) دلالات متعددة، منها القوة، والعظمة والبقاء والوجود، كره الغريب، وفرض السيطرة و أحكام القبض على الأمور، كلها دلالات تنطبق على هذا الشعب المجاهد، فهو قوي بثوابته الإسلامية والعربية والعقائدية، عظيم بأبنائه الذين يرخسون أنفسهم يوم الروح، يكرهون كل ما يناقض رمز الوطنية والجهاد، والغريب في المخيال الشعبي الجزائري هو (ثراية الروم وأولاد شنضاض)، وهي مسميات تطلق على كل سكان أوروبا، أو كل من جاء من وراء البحر، وهي تقابل ما يصطلح عليه اليوم (الغرب) و(اولاد شنضاض) تسمية تخص إلا الإسبانيين الغزاة، ومثلها أيضا تسمية (سبنبول) و(ثراية العدا) وكل هذه التسميات واردة في القصيدة.

وإن البيت هذا يكشف لنا عن حماس المجاهدين وغيرتهم على هذا الوطن وبالتالي الحفاظ على مقوماته، دينه الإسلام، لغته العربية، شخصية الأصيلية، مثله وثوابته العظيمة، ولهذا أحسن الشاعر استعمال هذه الصورة فشبّه شجاعة وشهامة وبطولة الجزائريين بالنمر الذي يرتمي على فريسته التي تعدت حدود المعتاد بأن لا ظهور ولا تجوال في حال وجود النمر لهيبته وعظمته، وكل من ظهر وجال، نال جزاءه وهو الافتراس، وهذه إحدى الحقائق البلاغية التي نسجلها للشعر الشعبي عامة والشعر الخلوفي على وجه التحديد، حيث أن لهذا الشعر "بلاغته الخاصة مثل الشعر المعرب، فالمهم في ذلك هو تأثيره في جمهوره، وتعبيره عن قائله، و عما يجول في ذهنه من أفكار وما تضطرم به نفسه من مشاعر وأحاسيس، بأسلوب جميل ينفعل له المتلقي، فالفصاحة في الكلمة والبلاغة في المعنى ليستا مقصورتين على اللفظة الفصيحة المعربة، وإنما تشاركها في ذلك لغة الشعر الملحون¹".

إن هذه القصيدة هي أحداث سابقة لقصيدة (قصة مزگران معلومة)، الواردة في الديوان، ولقد سماها الشاعر بالغزوة حيث يقول:

فكرتني هذه الغزوة الساعدة * باصحابي أنا كنت معاهم في الهجوم

فعلا، إن الشاعر أحسن استعمال المصطلح حيث أن معركة مزگران لتشبّه كثيرا تلك الغزوات التي كان يخوضها الرسول صلى الله عليه وسلم ضد المشركين، فالمعركة كانت تدور رحاها بين جيشين متناقضين في العقيدة والدين،

¹ - الركيبي عبد الله: الشعر الديني الجزائري الحديث، ص 492.

في الثقافة واللغة، في العرف والعادات والتقاليد، أحدهما جزائري عربي مسلم، مؤمن بأن كلمة الله هي العليا، وكلمة الكفار هي السفلى، تواق إلى الحرية والعدالة والسلام والعيش في أمن وأمان وسلم واستقرار، وأما الآخر غرته قوته فراح ينهب خيرات البؤساء والفقراء، ولم يكتف بهذا فحسب، بل يريد أن يعكر الحياة في وطنهم، ويبدل الثقافة الأصيلة بثقافة صليبية، لا تريد الخير للإسلام ولا المسلمين، إضافة إلى هذا، يقتلون ويأسرون ويستضعفون أهل هذا الوطن، ويريدون طمس كرامته ومسح شرفه، لكن للجزائريين رب يحميهم، وإيمان وعزيمة لا يقهران، وأعلنوا الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد، وكما يقول الشاعر:

إنا نرخص يوم الروع أنفسنا * ولو نسام بها في الأمن أغلينا

حقا، إنها غزوة بين قوى الحق والخير وبين قوى الباطل والشر، وهيهات أن يستوي الحق والباطل، بل إن الحق يعلو ولا يعلى عليه، وإن الشر مهما طال، فلا بد من يوم تبرز فيه شمس الحق والخير، وإن بالجهاد لتسترد الحقوق، وإن بالعزيمة والإرادة والنضال لتسحق الجبال، وتزول قوى الشر، وإن من كانوا بالأمس شجعانا أصبحوا أذلاء خذلانا، وإن الدفاع عن الوطن هو دفاع عن الدين الإسلامي ولغة القرآن، واللغة العربية، وهذا هو هدف السابقين من أمثال رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته الكثيرة وسماها الشاعر (أي معركة مزگران) بالقصة بقوله:

متورخة قصة مزگران سابقة * تورخوها سادات العلم بالصواب

"إن تسمية (المعركة) بالقصة توحى بأن الأحداث التي جرت في هذه الحرب ليست أحداثا بسيطة، وإنما هي أحداث كبرى تتضمن وقائع جسيمة تأخذ طابع القصة أو الحكاية ذات الأحداث المتسلسلة أو المتتالية"¹.

لقد جاءت القصيدة مثالا حيا للخطاب الشعري للشاعر الأخضر بن خلوف سواء من حيث بساطة اللغة، وسهولة فهمها، في قالب فني جميل، علما أن الشاعر لم يكن يتخير الألفاظ، ويجرب تركيبها، ولم يكن يتصفح المناجد والمعاجم لينتقي المفردات التي تكون صالحة في بناء القصيدة، بل جاء توظيفه للغة عن طريق السليقة والموهبة التي فطر عليها في صناعة الشعر منذ صباه، لقد جاءت لغته انطلاقا من البيئة التي كان يعيش فيها، وانطلاقا من اللغة التي كان يتكلم بها أهل منطقته.

وإن هذه القصيدة لتكشف لنا بوضوح أن الشاعر كان يحسن التكلم باللغة أو اللسان الإسباني، ويتمثل هذا في ورود بعض الألفاظ والتراكيب التي يعسر علينا فهمها أو تفسيرها لعدم تمكننا من اللغة الإسبانية، ومن هذه الألفاظ التي أوردتها الشاعر في القصيدة نذكر: (ألبيتشو، أجوان واخوان، أختني سطو موريرا)، وهذه

¹ - التلي بن الشيخ: دراسات في الأدب الشعبي، ص 70.

الألفاظ هي تسميات لقادة وزعماء الجيش الإسباني الغازي، وقوله أيضا (مادرميا، كلشبكة، كريشتال)، ونجهل معناها عدا اللفظة الأخيرة التي تعني إحدى المقاطعات الشمالية لإسبانيا، وكذا قوله: (أولاد شنضاض، سبنيول)، ومعناها الجيش الإسباني.

إن الشاعر بن خولف منذ مئات السنين يدعو إلى الانفتاح على اللغات، فليس عيبا أن نتعلم لغة الآخرين، إنما العيب أن ننسلك عن لغتنا ونجعل لغة غيرنا هي السيدة، وإن في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، تنبيه إلى تعلم لغات الغير شرط أن نجعل لغتنا العربية هي السيدة، حيث يقول عليه الصلاة والسلام: "من تعلم لغة قوم أمن شرهم" ويقول: "أطلبوا العلم ولو في الصين"، فالحديث الثاني له أكثر من دلالة، حيث يدعونا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طلب العلم ولو في الصين، لكون الصين هي من أبعد المناطق، والوصول إليها صعب وعسير هذا من جهة، ومن جهة ثانية يدعونا إلى تعلم لغتهم، فلغتهم هي الأصعب من الناحية التعليمية، ومن جهة ثالثة كون أن الصين كانت تضم وتشمل جميع العلوم على اختلافها وتنوعها.

نلاحظ أن هناك حضور واضح لتقافتين متباينتين ومختلفتين ومتناقضتين في إطار ثقافة واحدة، ألا وهما الثقافة العربية الإسلامية، والثقافة الإسبانية الغربية، وسبب ورود هذا التمازج والتزاوج الثقافي هو الإطار الجغرافي من جهة، ذلك أن منطقة الشاعر (مستغانم) قريبة من الساحل الإسباني هذا ما سمح بظهور ما يسمى بالتأثير والتأثر من كلا الثقافتين، ومن جهة ثانية الجانب التاريخي، حيث أن المناطق الساحلية الجزائرية وحتى المغربية كانت عرضة لسلسلة من الحملات الصليبية الشرسة هدفها طمس الثقافة الأصل واستبدالها بثقافة الكنيسة الداعية إلى الغزو و الفوضى وزعزعة الاستقرار، وفرض نظام الصليب داخل وخارج الحدود الإسبانية، وإن حضور مثل هذه الألفاظ له أكثر من دلالة حيث لا الوطن وحده كان مستهدفا من غريب غاز، بل حتى الدين واللغة والثقافة والعادات والعرف الاجتماعي، بل وحتى الشاعر نفسه كان مستهدفا.

و ما نكتشفه من خلال القراءة المتكررة للقصيدة، ورود ما يسمى بالإيقاع المتكرر، ونستشفه من خلال تكرار في نهاية كل مقطع بدعاء إلى الله بأن ينصره ويخلصه من بطش الغزاة، ويدع مرة بضمير المتكلم المفرد، ومرة أخرى بضمير الجمع، حيث يقول:

يا الله سلكني في ليلة الهجوم

ويقول مرة أخرى:

يا الله سلكنافي ليلة الهجوم

هذا ما أكسب الخطاب الشعري في القصيدة قيمتها من خلال صوت الألفاظ ورنات الحروف، وتردد هذا الشطر في نهاية كل مقطع، من أول القصيدة حتى

ختامها، وهذه هي طريقة الشاعر في طريقة بنائه للقصيدة، وتحقيق التوازن بين المعنى اللغوي للألفاظ و إيقاعها الموسيقي المتميز، حيث يفعل القارئ لسماعها أو لقراءتها، ويشعر وكأنه في زمن الشاعر، ويتصور تلك الأحداث والوقائع التي ذكرها الشاعر بن خلوف في القصيدة، وإن الهدف من توظيف الشاعر لهذا الإيقاع المتكرر هو وسيلة لتحقيق الاتصال مع القارئ، وكذا سهولة تثبيت القصيدة في ذهنه وحفظها بدون تعقيد ولا غموض.

ج- دلالة المكان في القصيدة:

إن القصيدة محملة بمجموعة هائلة من أسماء الأماكن، وإن ذكر مثل هذه الأسماء له أكثر من دلالة، كما تساعد على معرفة هوية وانتماء النص، وكثيرة هي النصوص الشعرية الشعبية التي توظف أسماء الأماكن، كشعر الرحلات، أو وصف الطريقة المؤدي إلى مكان ما، كمكة أو المدينة المنورة، وفي القصيدة نستشف رسم خريطة للطريقة الذي مر به الشاعر وهو قائد الجيش، وهو الذي كلف بمهمة صعبة وعسيرة هو جمع القبائل والعشائر من العاصمة حتى مستغانم تحت مظلة الجهاد في سبيل تحرير الوطن من بطش الطغاة الكائدين، وفعلا تمكن من أداء المهمة التي كللت بالنجاح، ومن الأماكن التي أوردها الشاعر: مدينة الجزائر، منطلقه في أداء المهمة، مدينة سيدي عبد الرحمان الثعالبي، وقبل أن يأخذ الشاعر طريقه إلى أداء مهمته يذهب إلى قبر الولي سيدي عبد الرحمان يتبرك به، ويدعو الله بوجه هذا الولي بأن ينصره وجيشه في ليلة الهجوم، وينطلق في رحلته الشاقة، ليمر بمنطقة شرشال فالبليدة فالأصناب، والشاعر من بلدة لأخرى يبحث على الجهاد، وأن البلد بحاجة إلى تكاتف كل الجهود، وحرص كل الصوف، والانضمام إلى راية واحدة، وبعد بلدة الأصناب يتجه الشاعر بجيشه إلى مرجة سيدي عابد، وهناك لابد من زيارة مقام الولي سيدي بوعبد الله، وفي طريقهم إلى مكان المعركة يأتيهم الخبر عاجلا بأن هلموا سراعا، ويتزايد عدد المنضمين إلى الجيش المسلم يدفعهم الحماس إلى الجهاد، والشوق إلى لقاء الأعداء، والغيرة على أصالة هذا الوطن ويذكر الشاعر أنه حط رحاله في (الشلف)، وقد ذكر قبل قليل بلدة الأصناب، فالشلف هنا تعني وادي الشلف الذي ينحدر منبعه من الأصناب، ويمر بغيليزان ويصب في ساحل مستغانم، وفي منطقة هبرة يأتي الخبر كالصاعقة بأن العدو الإسباني ينزل قواته من على سفنه إلى المنطقة، وبسرعة أكثر يصل الشاعر بجيشه الجرار إلى المكان، واحتدمت المعركة وكان النصر حليف المسلمين الجزائريين.

والملاحظ أن الشاعر كان في كل مرة ينزل إلى مقام الأولياء الصالحين، ويتبرك بهم، ويدعو الله النصر بوجههم الكريم، فكان له ما أراد، ومن بين الأولياء الذين ذكرهم هم على التوالي: سيدي عبد الرحمان الثعالبي، سيدي بوعبد الله، سيدي بلقاسم، سيدي منصور، وهؤلاء الأولياء ذكرهم الشاعر، ووجدهم في

طريقه، فلو حدث أن مر الشاعر بأولياء آخرين لكان قد ذكرهم جميعا، وهذا دلالة على صوفيته، واحترامه لمقامات الأولياء.

وإن ذكر الشاعر بن خلوف لمثل هذه الأماكن، وهذه المقدرات ليؤكد على وطنيته الحقّة والخالصة النابعة من إيمان راسخ، وعقيدة دينية تعطي مفهوم الوطنية بعدا إسلاميا أوسع من مفهوم الوطنية التي نعرفها نحن اليوم كمفهوم سياسي يرتبط بالحدود و الإلتواء، والنظام الاجتماعي السائد، وها هي ذي الأماكن والمناطق اليوم تحكي ماضيها شاهدة على أجيال تحملوا مشاق المهام، وصعوبة المسؤولية، وبعد المسير، فالوطنية في مفهوم الشاعر هو توحيد الصف، والدفاع عن الإسلام، واللغة العربية لغة القرآن، والأصالة العريقة المتجذرة في التاريخ، والجهاد ضد كل من يريد تعكير صفاء القلوب، وزعزعة الاستقرار، وخلخلة الأمن والسلام.

ونخلص من خلال هذا التحليل إلى أن الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف شاعر بالفطرة والموهبة معا، عبر بلسانه، وأرخ بشعره وقائع تاريخية بكل تفاصيلها وحقائقها، وهو بهذا فتح باب البحث واسعا، ومن البحث في التراث الشعبي إلى البحث في الشعر الشعبي إلى البحث في التاريخ، وهذا هو سر نجاحه بتأسيسه أقدم مدرسة في الشعر الشعبي تعلم منها أبناء عصره، وتعلم نحن منها اليوم، وتتعلم الأجيال التي تلحقنا بكشف المغمور، وتعزية المجهول، وإظهار المكنوز في مثل هذه النصوص الشعرية المحملة بمجموعة من القيم والدلالات والمعاني، ونحن في تحليلنا هذا المتواضع، لا ندعي الوصول إلى كل جوانب التحليل، بل هي محاولة اجتهادية مبدئية قابلة للنقد والنقاش، ولا شك أن من المناقشة والجدال الحسن يبرز الشعار كما يقول المثل الفرنسي: " De la

"discussion jaillit la lumière

قصيدة: ليلة الهجوم

- 01 يا عماية بصري ما صبت فائدة *
* كنت حاسبها دار الدنيا تدم
- 02 ما سهرت وما غنيت في الكدا *
* لابس عبايتي مطلية بالحموم
- 03 القبر يرجاني والموت الباردة *
* السفر طويل علي ما مصايب النوم

يا الله سلكني في ليلة الهجوم

- 04 باشا خيال كنت نهاتي من العرب *
* في حكم خير الدين العادل الأصيل
- 05 راكب على فرسي نسوق الاشهب *
* هنا وغادي بقر بصولو يميل
- 06 إذا نعبر سيفي من شافني رهب *
* والتراك نهاتي بيا في كل جبل
- 07 فايز على القوم والناس شاهدة *
* من وطن سيد الثعلبي رايس العلوم
- 08 الجزائر خيار مدينة الهدا *
* درت فيها ديوان كبير فالرسوم

يا الله سلكني في ليلة الهجوم

- 09 شاب راسي من قوة ليعة المحال *
* مسرطين الفرسان ما شية وجاية
- 10 والخلوفي ينده ويسايس في الأبطال *
* والعرب بالسنجاج والقوم غازية
- 11 في جبل شرشال حطينا على القتال *
* يحق في ذلك اليوم امراتكبكية
- 12 ما صرى في ذيك الليلة مرمدة *
* والعساكر بالخوف هايمهطموم

13 والأبطال من الأتراك عندي مجردة *
* من توفي مسلم يوابدانعموم

يا الله سلكني في ليلة الهجوم

14 الأبطال من جيش عصمان بن أحمد *
* واصحاب النبيل البسكري والفقير

15 واصحاب راية عصمان من الكرد *
* يحارب على جيشو من لالو شبيه

16 من الوطن خرجنا بالسلاح والعمدة *
* هذا موسى وذا قبالتو لهيه

17 والعساكر بشد الخوف راعة *
* قوة الأعباد في غليانها تعوم

18 نوحى يا عيني وابك على المادة *
* على الأحباب كانوا رحلوا من الرسوم

يا الله سلكني في ليلة الهجوم

19 أشحال من ألف كانوا فمة ميسرين *
* قهر سلكننا هم بالقوس والحزام

20 على الجزائر كنا بيها محوطين *
* ناعسين في غفلة لا عيش لا منام

21 أخرجنا من البليدة واحنا مزر بعين *
* شوار الأصناب ابنينا بلدة بالعلوم

22 حركوا سكانها لينا قاصدة *
* بالسيف والدرقاتمتفدة بسوم

23 احنا معاكمقناتلواتراية العدا *
* نجاهدوا في سبيل الله على السهوم

يا الله سلكني في ليلة الهجوم

24 عشرين ألف عربي كنا مقاتلة *
* منهم القايد والوزير والحكيم

- 25 حتى شور المرجة والناس جافلة *
*
مقام سيدي بو عبد الله الولي الزعيم
- 26 تبعونا شلة كفار هاملة *
*
بقي السيف يشالي والحرب والزيدم
- 27 ما صرى ذاك اليوم على المجاهدة *
*
كل فارس ملتهي في دمو يعوم
- 28 مية وخمسين كافروا الناس شاهدة *
*
اقتلتها من شنضاضوثرابة الروم
- يا الله سلكني في ليلة الهجوم
- 29 صدينا من المرجة نلويبالفناق *
*
والعرب تنفايش والخيول صاهلين
- 30 كل فارس يشنكي من ليعة الفراق *
*
والجهاد ينادي على الصديق الأمين
- 31 قياطين منشورة غير بالزواق *
*
كلهم غلايط في بحور عايمين
- 32 الخبر جانا من شور كما مدة *
*
اندهوا قالوا لينا شرطة بالعزوم
- 33 عند ساعة الصبح الناس رافدة *
*
مسرطين على القفرة هاملة تهوم
- يا الله سلكني في ليلة الهجوم
- 34 عند عسعاس الليل شرطان المسايرة *
*
في شلف حطيناوالقومسشرطة
- 35 بعدما تبعونا عريان في المسيل *
*
جمال مقيمة رافدة وحاطة
- 36 كل مسلم على دين النبي بغير *
*
وينكم يا قوم الجهدة مفرطة
- 37 الخبر من هبرة كلمته مقيدة *
*
قال في بو عسرية نازلة الروم

38 أولاد شنضاض على خبية مجندة *
* عند سيدي بلقاسم نازلة الروم

يا الله سلكني في ليلة الهجوم

39 كي فزنا صبنا سبنولمصيلين *
* في وسطنا درنا هم للسيف والطراد

40 عند سيدي منصور أضاواها ريبين *
* فمة ضربناهم بالقوس والزناد

41 البيئشو وعساكره بالسور دارقين *
* قال مادر مية يا قلة الأولاد

42 آجوان واخوان على القفرة مسندة *
* في لحمهم مشاهب وعيش الهوام

43 أختني سطو موريرا جميع راقدة *
* كل شيكة منهم محلسة حموم

يا الله سلكني في ليلة الهجوم

44 الجهاد الغينا على سيد فاطمة *
* سيدنا محمد الهاشمي الرسول

45 كل واحد على العديا يرتمي *
* كالنمر الجيعان بهمته يصول

46 لا إله إلا الله كلمة معظمة *
* يا الله ثبتني بيها على الرحول

47 الكلمة المفروضة هي النافذة *
* من قالها مسلم من لا قالها مشوم

48 فكرتني هذه الغزوة الساعدة *
* با صحابي أنا كنت معاهم في الهجوم

يا الله سلكني في ليلة الهجوم

49 كيف تمينا هذه الغزوة الفاتنة *
* انطلق البراح في سبيل القبيل

- 50 أولاد حليات عاونونا وعريان الحسانية *
*
منهم مجاهر عطفو بلا ختيل
- 51 والعرب من كريشتالوالقناق *
*
عاونونا في ذلك اليوم في المجاهدة
- 52 كل طرشون على قبيلتومرعدة *
*
حتى لحد الدومة مقابلة الدوام
- 53 العرب والقبائلسامسطة هادة *
*
تبارك الله على سلطان كل قوم
- يا الله سلكني في ليلة الهجوم
- 54 ختمتها بالصلاة على النبي الرشيد *
*
الهاشمي الماجد قطب الدواير الفلاح
- 55 عليه صلى الله قد هلال كل عبد *
*
ما ضوات كواكب ومازهي اللقاح
- 56 الخوفي الأكل ناظم ذا القصيدة *
*
ارحمني يا الله يا سامع الفصاح
- 57 محال ماولدت كي الكحل والدة *
*
غير يمينة بنت وهب على المعصوم
- 58 وفاطمة بنت أسد ذات الساعة *
*
أم الإمام علي عريان كل قوم
- 59 الصلاة على الهادي خير الهدى *
*
قد مازهات الدروج ومسائر النجوم

يا الله سلكني في ليلة الهجوم